

مول فلسفة نيتشه

رسالة نبي الوثنية !

للأسامة تاذكريا إبراهيم

اعتقد نيتشه في نفسه أن عليه رسالة لا بد أن يبلغها للانسانية ، فلم يكن له بد من أن يفتق لنفسه نبياً يشكك على لسانه . وقد وضع نيتشه رسالته هذه على لسان نبيه زرادشت ، فجاءت وحياً ليس له نظير في عالم الفلسفة . والواقع أن كتاب « هكذا قال زرادشت » هو طرفة فنية رائدة لا نجد لها مثيلاً في الأدب الألفاني الحديث ، بل لعلها تكون أروع ما عرفه النثر الأدبي في ألمانيا كلها . ولكن الذي يمتينا من أمر هذا الكتاب هو أن نعرف السبب الذي من أجله اختار نيتشه « زرادشت » لكي يكون المعبر عن آرائه . وقد تكفل نيتشه نفسه بالجواب عن هذه المسألة فقال : « إن أحداً من الناس لم يسألني - وكان الظن بهم أن يسألوا - عن المعنى الذي أقصده حينما أجرى اسم « زرادشت » على لساني ، أنا « اللا أخلاق »

(immoraliste) الأول ؛ فإن ما كان يميز هذا الفيلسوف من غيره ، هو على وجه التحقيق ، تمارضه المطلق مع اللا أخلاق . والواقع أن زرادشت كان أول من وجد في الصراع بين الخير والشر ، المحور الأساسي الذي تدور حوله كل الأشياء ، فهو أول من حول الأخلاق إلى مجال الميتافيزيقا ، وجعل منها قوة أو علة أو غاية في ذاتها . ولكن هذا عينه هو السبب في اختياري له : فإن زرادشت هو الذي استحدث ذلك الخطأ الجسيم الذي هو « الأخلاق » moralité ، وإذن فإن من الواجب أن يكون هو أيضاً أول من يقطن إلى ذلك الخطأ ؛ لا لأن اختبار المسألة كان أطول وأعظم من اختبار غيره من المفكرين (فإن التاريخ مفعم بالأدلة التجريبية والبراهين العملية التي تنقض النظرية المزعومة عن وجود نظام أخلاق للأشياء (ordre moral) des choses) ، بل لأن زرادشت كان أكثر أمانة وتوخياً للمصدق من غيره من المفكرين . »

ولكن ما هو هذا الوحي الذي نزل على زرادشت من سماء إلهه نيتشه ؟ لقد جاء هذا النبي الجديد بديانة معارضة للمسيحية ، مناهضة للأخلاق ؛ وهذه الديانة مودعة في تضاعيف شعر فني

لأسراء أخرى . فكانت أحلامه لذلك انمكاساً مستتراً انفشله الشخصي

وبعد . فإن باختبار القاري لأحلامه بإخلاص ، كما فمانا في هذا المقال ، ربما يكون قادراً على شرح ما يبدو له منها غامضاً وفي الوقت ذاته يدرس عن نفسه الشيء الكثير

هل أحلامك إلهامية ؟ لقد قال الدكتور الفريد أدلر Dr. Alfred Adler إنها في بعض الدرجات ربما تكون كذلك .

ليس لأي سبب خفي ، ولكن لأنها ربما تدل على محاولات تجريبية عند حل المشكلة التي تنأى

وقال أيضاً إن شخصاً ربما يركن إلى التمتع بأحلام السمادة والنجاح . غير أن هذا لا يتفق الآن للرجل الجريء الذي لا يبتعد حقيقة عن خياله ، فتكون أحلامه أقل نميراً عما يتمتع به وجدانه . (الاسكندرية) عبد العزيز مازور

ووجد حلاً غير مرضي بميشتته مع أخته التي كان سيصير مركزها إذا تزوج مشكلة صعبة . وكانت في الحقيقة ، تتكدر إذا بين لها رغبته في التعرف إلى نساء أخريات . وكانت أحلامه بموتها أيضاً لرغبته اللاشعورية التي تحتم موتها حالاً ، وبهذا يحل مشكلته هذه . وكان هذا غير مقبول لدى عقله الواعي وضيقه اللذين عرضا على الرغبة باهتمام مضطرب قلق لصحة أخته ...

إنه كان يميل إلى ج كثير ، ولأن السيدة ب شجتمه سارت المرأتان مشتركين في (اللاشعورية) . ورغبته الخائبة للإرضاء الطبقي البحث كان محققاً ب د التي أصبحت على هذا النمط مشتركة مع كل من المرأتين ، وكان (١) متبلاً في شعوره الشخصي بالضعف ، بقدر ما كان قلقاً ، وساعة أخته الذهبية كانت هدية منه ، وتمبر عن العاطفة التي أراد أن يعطيها

والذاهب الماطفية المتطرفة ، مما نجده في العصر الحديث لدى أصحاب « ديانة الألم الإنساني » *religion de la souffrance humaine* . وقد استعان نيتشه في سبيل القضاء على هذه الأخلاق ، بكثير من آثار ذلك النقد الألماني العنيف للديانات والفلسفات . ولكن هذا النقد قد اتخذ عنده صورة التجديفات العنيفة والامعات المتواصلة ، فجاءت حملته على الديانات ضرباً من الإنكار الهائج الذي تشيع فيه صورة الجنون . أتيد أن هذا الإنكار تمقبه تأكيدات مفعمة بالحاسة والحية ، بقدر ما هي خالية من كل برهنة أو إثبات . وهذه التأكيدات نفسها قد لقيت نجاحاً كبيراً ، لهذا السبب عينه وهو انعدام البراهين منها : فإن انعدام البرهنة كان من شأنه أن يخلع على تلك التوكيدات الإنكارية (إن صح هذا التعبير) قوة ووجاهة ؛ ومن ثم فقد سيطرت على الناس وأثرت في عقولهم تأثيراً كبيراً . فهؤلاء الذين يؤخذون بسحر العبارة وموسيقية اللفظ ، قد وجدوا في عبارات نيتشه التوكيدية الحاسمة ، لذة كبرى لا عهد لهم بها في كتب الفلاسفة . وهؤلاء الذين يولعون بالغريب الشاذ ، ويمشقون النادر غير المألوف ، قد وجدوا في كتب نيتشه ما لا حصر له من الغرائب التي تستثير الإعجاب وتبعث على الدهشة . ولكن هذا وحده لم يكن السبب الوحيد في إقبال كثير من الناس على قراءة كتب نيتشه (التي أخذت تنتشر وبماد طبعها) بل إن نعمة سبياً آخر أعمق من ذلك ، وهو أن نيتشه قد نادى بمذهب فردى أرسطقراطي ، أراد به أن يهدم كل أخلاق وكل دين . فالروح الإنكارية التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، قد وجدت في نيتشه تعبيراً قوياً عن الحاجة التي تشعر بها . وهل كانت رسالة زرادشت في الحقيقة ، إلا دعوة سرية مؤداها « العودة إلى الوثنية الأرسطقراطية » : *paganisme aristocratique* ؟ وهل كان نيتشه إلا « بيسكال الوثنية » كما قال هابيلوك إليس بجن ؟

زكريا إبراهيم

ساحرين في السمع كما ترون الآيات القصار . فلم يصح نيتشه إذن أفكاره في ألفاظ وعبارات ، بل صاغها في أمح ولحات . وهذه الأفكار كثيراً ما يمدب وقعها في السمع ، بنض النظر عن المعاني التي تنطوي عليها ، فهي أفكار لا تنحصر قيمتها في ذاتها ، بل في صورتها الشعرية الرائعة التي ينساب سحرها في النفس خفياً لا تنكاد تنحني به المعاني ؛ وليس من شك في أن هذه الصورة الشعرية ذات الموسيقى العذبة ، كان من شأنها أن تصرف النظر عن التأمل في المعنى الذي تحويه الألفاظ ، ومن هنا فإن أقوال زرادشت كثيراً ما تتخطى الأسماع إلى القلوب ، فتعمل في النفس بما لا تعمله الأفكار والمعاني . وهل يمكن للفلسفة أن تؤثر في النفس كما يؤثر الشعر ؟

وليس أسلوب نيتشه وحده هو المجازي الرمزي ، بل إن فكره أيضاً رمزي كذلك . فلما نجد لدى زرادشت تحديدات دقيقة أو براهين ثابتة ، بل نجد خائطاً من الآراء والأقوال ، يمكن أن نجد فيها السكل شيء جواباً بالسلب وجواباً بالإيجاب ، ويمكن أن نجد فيها أيضاً مجالاً للاختيار بين عشرة أو أكثر من التأويلات المختلفة . وهذا كله من شأنه أن يجعل المؤلف في منجى من الاعتراضات التي يمكن أن يوجهها إليه الناقدون ، لأن الناقد إن يجد لديه شيئاً ثابتاً يمكن أن يأخذه عليه . ومثل هذا الأسلوب في الكتابة ، أليس هو من قبيل التخلي عن الفلسفة الحقيقية ، على حسب هوئي ميتافيزيقي خاص ، أو نزعة توكيدية *dogmatisme* شخصية استمحات إلى إيمان ثابت أو عقيدة راسخة ؟ إذن فما أسدق نيتشه نفسه إذ يقول على لسان نبيه زرادشت : « تسألوني لماذا ؟ أنا لست ممن يسألون حين يعملون لماذا ؟ » . وهل كان نيتشه فيلسوفاً يأخذ بالمقل ويخضع للمنطق ، حتى يقدم حجة على ما يقول ، أو برهانا على ما يدعي ؟ ... إن زرادشت نبي ملهم ، فليس له إلا أن يعل على الناس أحكامه ، وليس على هؤلاء الناس إلا أن يهفوا له السمع ! أما الرسالة الجديدة التي جاء بها هذا النبي الملهم ، فهي في جوهرها رد فعل عنيف ضد الأخلاق المسيحية المثالية ،